﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧﴾ [النور:27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستئذانُ صَونٌ لِلأَعراضِ

جاءتْ آيةُ الاستئذان إثرَ ما فُصِّل عن الزِّنى وعن رميِ العفائِفِ عنه، ليشرعَ في تفصيل الزَّواجر عمّا عسى يُؤدّي إلى أحدهما، من مخالطة الرِّجال والنِّساء ودخولِهم عليهنَّ في أوقات الخَلوات[1]، وهذا فيه تنزيهٌ "عن مواقع التُّهَم، وتلبُّسٌ بما يحسِم الفساد[2]، فجاء النَّصُّ الكريم باحترام حرمةِ البيوت، فشُرِّع الاستئذانُ دفعًا لهذه التُّهَم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَدۡخُلُواْ﴾: "الدّالُ والخاء واللام: أصلٌ مطَّردٌ منقاس، وهو الولوجُ"[3]، فالدُّخول: نقيضُ الخروج وضدُّه، ويُستعمل في المكان والزمان والأعمال[4]، ووُلوج الشيءِ، أي: تَغَلْغُلُهُ في أثناء شيءٍ، وجلَّ ما في القرآن من التركيب هو من الدخول بهذا المعنى[5]، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾.

2) ﴿بُيُوتًا﴾: (بيت) أصلٌ واحدٌ، وهو المأوى والمَآبُ ومجمع الشَّمل[6]، وأصل البيت: مأوى الإنسانِ باللَّيل، لاشتقاقِهِ من البيتوتةِ، يقال: باتَ، أي: أقام باللَّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنَّهار، ثمَّ قد يُقال

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 168.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 255.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دخل).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفّاظ: (دخل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خرج).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

للمسكن: بيتٌ من غير اعتبار اللَّيل فيه، فيُطلق على كلِّ منزلٍ، وإن لم يكن باللَّيل، وجمعُه أَبْياتٌ وبُيوت، لكنَّ البيوت بالمسكن أخصُّ، والأبيات بالشِّعر[1]، والبيت عند العرب ما يُعرف عندنا بالحُجرة؛ ولأنَّ الكعبةَ شَرَّفها اللهُ تعالى إنَّما هي على صورةِ الحُجرة؛ سُمّيت بيتًا، فالبيت بلِحاظ ما مرَّ ذكرُه: حَيِّزٌ محيطٌ يُسكَنُ فيه، أي: يُسْتَقَرُّ[2]، هو معنى اللَّفظ في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾.

3) ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: (أنس) أصل واحد، وهو ظهور الشَّيء، وكلُّ شيء خالف طريقةَ التوحُّش، سواء كان بالرؤية أم بالسمع[3]، والاستئناس: الاستئذان[4]، وهو في كَلام العَرَب: النَّظرُ، والاستعلام، واليَقينُ، يُقال: اذهبْ، فاستأنسْ، هَل تَرَى أحدًا؟ فيكون مَعْناهُ: انظُرْ مَن تَرَى في الدّار[5]، وإلى هذا يرجع معنى الاستئناس في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾، أي: حتّى تُعْلِموا من في الدار بوجودكم خارجها، أو تستعلموا إن كان صاحب الدار موجودًا[6]، ولم تخرج كُتُبُ التَّفسيرِ عن دائرة هذه المعاني، فمعنى ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ فيها "تؤنسوا أهلَ البيت بالتَّنَحنُح والتنخُّم وما أشبهه، حتى يَعلموا أنَّكم تريدون الدخول عليهم"[7]، و"تستعلموا، وتنظروا، وتتعرَّفوا"[8]، فإنَّ المستأنِس مستعلمٌ للحال، مستكشفٌ هل يؤذن له؟ أو لأنَّ المستأذنَ مستوحِشٌ خائفٌ ألّا يؤذنَ له، فإذا أُذِنَ له؛ استأنس[9]، أو لأنَّ صاحبَ البيتِ مستوحِش بالداخل الذي لم يستأذن، ولم يُعلِم وجودَه، فأُنْسُ صاحب البيت بانتفاء الوحشة والكراهية، وطلبُ الأنس له بالإعلام والاستئذان[10].

4) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلاف نسيتُهُ، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيْء وتَذكُّرُهُ، ثمَّ حُمِلَ عليهِ الذِّكْر باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسانك[11]،

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بيت).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (أنس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (أنس).
(5) ابن سيده، المحكم: (أنس).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أنس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 147.
(8) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 315.
(9) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 168.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 197.
(11) الفراهيدي، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (ذكر).

فالذِّكْرُ: ما ذكرْتَه بلسانك وأظهرْتَه، والصَّلاة للّه تَعالَى، والدُّعاء، والثَّناءُ، وقِراءَة القُرْآن، والتَّسبيحُ، والشُّكْرُ، والطّاعَة[1]، كلُّها ذِكرٌ، ويأتي الذِّكرُ لمعنى الوعظ؛ لأنَّهُ إذا تذكَّر؛ قد يزدجر[2]، ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ في الآية: لعلَّكم تتَّعظون، أي: قيل لكم هذا؛ لكي تذكَّروا، وتتَّعظوا، وتعملوا ما أُمرتم به في باب الاستئذان"[3]، فتعرفوا المصلحةَ، وتتحرَّوا الاحتشام[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الاستئذان خيرٌ عظيم

هذه الآيةُ تُشَرِّع الاستئذانَ للمؤمنين، وتنهاهم عن دخول بيوت غيرهم إلّا بإذنِهم، فإذا ما دخلوا؛ ألقوا السَّلامَ عليهم، حتّى يأنَسَ بهم أهلُ البيت، ويأنَسَ الداخل أيضًا بدخوله حين يسمعُ ردَّ السَّلام[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآية:

الاستئذانُ يَحفَظُ الحُرُماتِ ويُبعدُ الشُّبهاتِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، كلامٌ مستأنَف مَسوقٌ لبيان ما يترتَّب على مخالطة الرجال بالنِّساء، ودخولِهم عليهنَّ في أوقات خَلَواتهنَّ[6]، فهذه الآيةُ وما بعدها من الآيات استئنافٌ لبيان أحكام التَّزاور، وتعليم آداب الاستئذانِ، وتحديدِ ما يحصل المقصود منه؛ كيلا يكونَ الناسُ مختلفين في كيفيَّته على تفاوت اختلاف مداركهم في المقصود منه[7].

(1) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 227.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5177.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 36، 46.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 589.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 196.

نكتةُ نداءِ النَّكرة المقصودة (أيّ):

الوصفُ بالإيمان يـوجِـب حُـسْـنَ الإصغاء

كلمةُ (أيّ) في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نكرةٌ مقصودة، لكنَّها مُعَرَّفةٌ بالنِّداء، وزادَتْها جملةُ الموصول تعريفًا، وتلكم الجملةُ - التي وقعت بدلًا منه - قد كشف فيها الموصول وصلته الإبهامَ الملموح في لفظ (أيّ)، حيث نوديَ قومٌ مُعيَّنون، وهم المؤمنون، وهذا يجعلهم أكثرَ إيقاظًا، وأحسن إصغاء، فالنِّداء متوجِّه إليهم، "وفي ذلك إشارةٌ إلى ما يطلبه سبحانه من خواصِّ أهلِ الإيمان، وهو من الأدب الذي يناسب إيمانكم، وهو عدم التَّهجُّم على الأُسَر، وتكشُّف أستارها، وتحاشي إزعاجها"[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالموصول والفعل الماضي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تمكُّنُ الإيمانِ في القلب علَّةُ استثارةِ معانيه والعملِ بمقتضاه

آثر السياقُ التَّعبيرَ بالموصول في الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، دون أن يُقالَ مثلًا: (يا أيُّها المؤمنون)؛ ليستثيرَ في نفوسهم معانيَ الإيمان، ويَبعثَها في قلوبهم، وذلك من خلال جملة الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾، وجاءتِ الصِّلةُ ماضيةً؛ لتدُلَّ على أنَّ الإيمان قد وقع في قلوبهم، فالواجبُ عليهم أن يعملوا بمقتضاه.

بلاغةُ النَّهي بـ﴿لَا﴾:

الاستئذانُ يُغلِق بابَ التُّهَم

النَّهيُ له صيغةٌ واحدة، وهو دخول ﴿لَا﴾ الناهية على المضارع، ومعنى النَّهي: طلبُ الكفِّ عن الفعل على وجه الوجوب، والنَّهي في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ في سياق ذكر جملةٍ من الآداب الَّتي ينبغي أن تتأدَّب بها الطائفةُ المؤمنة؛ كي تُغلِقَ أبوابَ الشُّبُهات، فهو نهيٌ يَحمِل في طيّاته نُصحًا وإرشادًا للمؤمنين.

دلالةُ المضارعِ ﴿تَدۡخُلُواْ﴾:

حرمةُ البيوتِ يجِب أن تُصانَ دائمًا

كان يجوز أن يأتيَ التَّعبيرُ بغير المضارع في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، بأن يُقالَ مثلًا: (إذا دخلتم بيوتًا غير

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5175.

بيوتكم؛ فادخلوها بعد أن تستأنسوا)، لكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ عبَّر بالنَّهي الذي يستلزم وقوعَ المضارع بعده، والمضارع بطبيعته يدلُّ على التَّجدُّد، فهذا الأدب، وذاك التَّوجيه، لا يُقيَّد بزمن معيَّن، بل يكون شاملًا للأزمنة والأمكنة؛ ليتأدَّبَ به الناس ما بقوا في تلك الحياة، صونًا لأعراضِهم وحرماتهم.

سرُّ التَّعبيرِ بالدخول ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾:

وجوبُ إتيانِ البيوت مِن أبوابها

جاء النَّظمُ الكريم بإرشاد الإنسان - إذا أراد دخولَ البيوت بعد استئذانه - أن يدخُلَها من الأبواب المعدَّة لذلك، ولا يدخلَ من الأبواب الخلفيَّة، التي تثير الرَّيب والشُّكوك، وهذه اللَّمحةُ فُهِمَتْ من إيثار التعبير بالدخول دون الولوج في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ الولوج - وإن كان في معنى الدُّخول - إلّا أنَّ الغالب عليه الدُّخولُ من مَضيق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ [الأعراف: 40].

سرُّ تنكيرِ البيوتِ وجمعِها ﴿بُيُوتًا﴾:

وجوبُ الاستئذانِ حكمٌ عامٌّ في كلِّ البيوت

جاء لفظُ البيوت منكَّرًا في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا﴾؛ دلالةً على الشمول لكلِّ البيوت المسكونة، فكلُّ بيتٍ من البيوتات التي يسكنها أهلُها من ذوي الرَّحِم وغيرهم[1] - غيرَ بيتِ الداخل نفسِه - لا يجوز دخولُها إلّا بعد الاستئناس والسَّلام، وليس هذا الأدب مقصورًا على بيتٍ دون بيتٍ، ولو جاء النَّهيُ مسلَّطًا على المعرفة، فقيل مثلًا: (لا تدخلوا البيوت التي ليست لكم)؛ لَما أدَّتِ المعرفةُ معنى الشمول الذي أدَّته النَّكرةُ.

وصيغةُ الجمع تآزرت مع النَّكرة؛ لتؤكِّدَ معنى الشُّمول، ولو عُبِّر

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 31.

بالمفرد؛ فقد يُتوهَّم أنَّ التَّعبير لا يقصد الشمول، فرفع الجمعُ هذا الوهمَ.

دلالةُ الوصف بـ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾:

عـدمُ وجـوبِ الاسـتـئـنـاس لصاحب البيت

جاء استثناءٌ من البيوت التي هي مَناط حكم وجوب الاستئذان، بالوصف في قول الله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾، ممّا يدلُّ على أنَّه لا يدخل البيوت بغير استئذان إلّا من يمتلكها لحقِّ هذه الإضافة[1]، ويدلُّ على جواز دخول الرَّجل بيتَهُ بغير إذن؛ إذ إنَّه يجوز للإنسان أن يدخل بيتَ نفسِه من غير استئذان ولا سلام، لقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾[2].

لكن يُستحَبُّ له التَّنحنُحُ قبل الدخول، أو فعلُ أيِّ شيء يُعْلِم أهلَه وأولاده بدخوله؛ حتّى لا تقعَ عينُه على شيءٍ، لا يحبُّ أن يراه منهم، قالت زينبُ امرأة ابنِ مسعود: كان ابنُ مسعود إذا جاء منزِلَه؛ تنحنحَ مخافةَ أن يهجُمَ على ما يكره[3].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

جِـرصُ الإسـلامِ عـلـى إزالـةِ الـوحـشـة عـن أصحابِ البيوت

جاءت ﴿حَتَّىٰ﴾ غائيَّةً بمعنى (إلى) في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾، والمضارع بعدها منصوبٌ بـ(أنْ) المضمرةِ وجوبًا، فـ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا تشير إلى أنَّه متى تحقَّقت الغاية - وهي الاستئناس - فلا حرجَ بعد ذلك في الدخول.

إيثارُ لفظِ الاستئناس دون الاستئذان:

تـوجـيـهُ الـقـرآنِ إلـى مـحـاسِـنِ الآداب

لفظُ الاستئناس في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ﴾ أدقُّ في التعريف، وأدلُّ على الاستعلام من الاستئذان؛ لأنَّ الاستئذان هو الإذن المجرَّد، وتتحقَّق الإجابة بالإذن، أمّا الاستئناسُ؛ فطلبُ الأُنسِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/ 419.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 30.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 175.

وإزالة الوحشة، وذلك لا يتحقَّق بمجرَّد الإذن، بل لا بدَّ لتحقُّقه من إيجاد الألفة[1].

وجهُ التَّعبيرِ عن الاستئناس بالمضارع:

التَّعبيرُ عن الاستئناسِ بالمضارع في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ يدلُّ على التَّجدُّدِ، فالداخل المأذون له في الدخول لا ينبغي له أن يهجُمَ سريعًا في الدُّخول حتّى يتجدَّدَ له الأنسُ من صاحب البيت؛ كلَّما تجدَّدت إرادتُه للدُّخول، وتجدُّد الأنس بأن يُزيلَ صاحبُ البيت استيحاشه بعبارات الترحيب كـ(حلَلْتَ أهلًا، ونزَلتَ سهلًا)، و(أهلًا وسهلًا)، و(مرحبًا بك)، إلى غيرها من العبارات التي تُؤنِس الداخل.

البيوتُ مأوى الاستتار من كلِّ شيء يؤذي، وشرطُ دخولها تجدُّدُ الأنس

بل قد يُلمَحُ من صيغة المضارع أيضًا أنَّ تجدُّدَ الاستئناس لا ينتهي بالدخول، بل يظلُّ باقيًا بقاءَ مُكث الداخل، بحيث إذا شعُر الزّائرُ أنَّ صاحب البيت قد بهتت عنده حرارةُ الترحيب، فينبغي الإسراعُ في الخروج، وعدم المكث الطويل؛ دفعًا للإثقال والملَل، وهذا من الأدب القرآنيِّ الكامل، الذي تُراعى فيه مشاعرُ الناس وأحاسيسهم.

دلالةُ صيغة الاستفعال ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾:

الأصلُ في صيغة الاستفعال دلالتُها على الطَّلب، فكأنَّ المعنى في الاستئناس من قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾، أي: تطلبوا ما يُؤنِسكم، ويؤنس أهل البيت منكم، وإذا طلب الإنسان أن يَعلم أمر البيت الذي يريد دخوله؛ فذلك يكون بالاستئذان على مَن فيه، أو بأن يتنحنحَ، ويستشعر بنفسه بأيِّ وجه أمكنه، ويتأنّى قدر ما يتحفَّظ، ويدخل إثرَ ذلك[2]، ففي ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ معنى: حتّى تؤنِسوا أهل البيت بالتَّنحنح والتَّنخُّم وما أشبهه، حتّى يَعلَموا أنَّكم تريدون الدخول عليهم[3].

التَّشديدُ على عدم دخول البيوت إلّا بتحقُّق الأنس بين الجانبين

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5175.
(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 4/ 175.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 242.

بلاغةُ الكناية في ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾:

حـرصُ الإسـلامِ عـلى إشـاعـةِ الأمـــان بـين الناس

أوماَ النَّظمُ الكريم إلى الإذن المسوِّغ للدخول بلفظ الاستئناس في الآية: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾؛ وذلك لأنَّ الاستئناس رديفُ الإذن، فوُضع موضعَ الإذن[1]، وعبَّر باللازم - وهو الاستئناس - وأراد الملزوم، وهو الإذن.

واختار النَّظمُ التَّعبيرَ باللازم - وهو الاستئناس - للإشارة إلى وجوب توفُّر الأنس عند الطَّرفَين قبل الدخول، فإنَّ الدخول بغير أُنس يجعل صاحب البيت مرتابًا، كما أنَّ القادم عليه مرتاب؛ "لأنَّ الاستئناسَ ضدُّ الاستيحاش، والذي يطرُق باب غيره لا يدري أيُؤذَن له أم لا؟ فهو متردِّد مستطارُ القلب مستوحِش، أو كالمستوحش من خفاء الحال عليه، فإذا أُذن له بالدخول؛ استأنس، وزايله تردُّده واستطارة قلبه[2].

دلالةُ العطفِ بالواو ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾:

وجـوبُ الحِفاظِ عـلى حُـرمـة البيوت

جمعتِ الآيةُ الاستئذان والسَّلامَ بواو العطف في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، التي تفيدُ مشاركة المعطوفين في الحكم بلا ترتيبٍ، فجائزٌ أن يُقدَّمَ السَّلام على الاستئذان أو العكس، فيحصلَ المطلوب بتقديم أيٍّ واحدة منهما، لكن لابدَّ من الإتيان بهما معًا[3]، وعُطِفَ النِّداء بالسَّلام على الإذن؛ لما في السَّلام من التفاؤل بالسَّلامة[4].

واختلفوا في السَّلام والاستئذان، أيُّهما يُستحبُّ تقديمُه؟ والصحيح الذي جاءت به السنَّة، وعليه المحقِّقون: أنَّه يقدِّم السَّلام، فيقول: السَّلام عليكم، أأدخل؟ والقول الثاني: يقدِّم الاستئذان،

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 226.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 316، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 590.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 199.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 31.

والثالث، التفصيل: إن وقعت عينُ المستأذِن على صاحب المنزل قبل دخوله؛ قدَّم السَّلام، وإلّا قدَّم الاستئذان[1].

فائدةُ ذِكرِ السَّلام بعد الاستئناس:

عدمُ الاستغناءِ بالاستئذانِ عن السَّلام

كان النَّظمُ دقيقًا حين ذَكر السَّلام مع الاستئناسِ في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وذلك للمحافظة عليه، حتّى لا ينشغلَ الطارِق بالاستئذان، فينسى السَّلام، أو يظنَّ أنَّ الاستئذان كافٍ في الدخول[2]، فدفع ذكرُ السلام هذا الظنَّ، وبيَّن وجوب السَّلام عند الدخول؛ لِما فيه من تقوية معنى الأُلفة التي تدفع مخايلَ الشُّكوك والخوف.

سرُّ اختيار ﴿وَتُسَلِّمُواْ﴾ معنًى وصيغةً:

إشاعةُ الأمانِ في القلوب مطلَبٌ شرعيٌّ

جاء فعلُ السَّلام بصيغة المضارع في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾؛ للإشارة إلى تجدُّدِ السَّلام بتجدُّدِ الدخول، وآثر السياقُ السَّلامَ دون التحيَّة؛ لِما في السَّلام من معنى الأمان الذي يؤنِس صاحبَ البيت، ويُزيل عنه ما يعلَق بنفسهِ من رَيبٍ مظنون.

سرُّ تقديمِ الاستئناس على السَّلام:

التَّحريجُ الشَّديدُ في دخول البيوتِ بـلا اسـتـئـذان صونًا للأعراض

قدَّم النَّظمُ الكريم الاستئناسَ على التسليم في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وذكر العلماء وجوهًا لهذا التَّقديم[3]، فيجوز أن يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: حتّى تسلِّموا على أهلها، وتستأنسوا؛ وذلك لأنَّ السلام مقدَّمٌ على الاستئناس[4].

ويجوز أن يكون التَّرتيب على ظاهره، ويكون المعنى: حتى تستأنسوا بالإذن، ثمَّ تسلِّموا، ويجوز أن يكون الاستئناس بمعنى

(1) النووي، شرح صحيح مسلم: 14/ 131.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 198.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 226، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 357.
(4) فقد وردت أحاديثُ كثيرة بتقديم السَّلام على الاستئذان يرجع إليها في مظانها.

الاستعلام والاستكشاف، فهو استفعال من آنسَ الشيءَ؛ إذا أبصره ظاهرًا مكشوفًا، والمعنى: حتّى تستعلموا وتستكشفوا الحالَ، هل يُراد دخولُكم؟ ويجوز اشتقاق الاستئناس من الإنْس، وهو أن يتعرَّف هل ثَمَّ إنسان؟ ولا شكَّ أنَّ هذا مقدَّم على السلام.

ولو سلَّمنا بأنَّ الاستئناس إنَّما يقع بعد السَّلام، ولكنَّ الواوَ لا توجب الترتيب، فتقديمُ الاستئناسِ على السَّلام في اللَّفظ لا يوجب تقديمَهُ عليه في العمل، ومن ثَمَّ فإنَّ تقديمَ الاستئذان هنا مع أنَّ الأصلَ تأخيره، هو الاهتمام بشأنه اهتمامًا بالغًا، والتحريج الشَّديد في دخول البيوت بلا استئذان؛ صونًا لحرُمات البيوت.

معنى ﴿عَلَىٰٓ﴾:

إشاعةُ الإيناسِ في قلوب أهل البيت بإسماعِهِمُ السَّلامَ

﴿عَلَىٰٓ﴾ في أصل معناها تدلُّ على الاستعلاءِ، والاستعلاءُ تمكُّنٌ من الشَّيء المستَعْلَى عليه، ومن ثَمَّ، فإنَّ التَّعبير بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ يعطي دلالةَ التَّمكُّن، بمعنى أنَّ السَّلام يكون متمكِّنًا من أهل البيت تمكُّنًا جليًّا، بحيثُ يسمعونه، فيأذنون، أو يرفُضون.

إيثارُ لفظِ ﴿أَهۡلِهَاۚ﴾ دون ساكنيها:

لأهل البيت حرمتُهم الَّتي يجب أن تُصان

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالأهل في قول الله تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾، وأهلُ البيت هم سكّانُهُ، إلّا أنَّ هناك معنى في الأهل لا تدلُّ عليه لفظةُ السكّان، وهو معنى التَّعمير، فأهلُ البيت هم أصحابه الذين عمَّروه، وباتوا فيه، فصار لهم مكانًا، يقال: "مَنْزِلٌ آهِلٌ، أَي: به أَهْلُهُ، ومكان آهِلٌ: لَه أَهْلٌ"[1]، ومَكانٌ آهِلٌ: مَأْهولٌ، قالَ الشّاعر:

وَقِدْمًا كانَ مَأْهولًا *** فأَمسَى مَرْتَعَ العُفْرِ[2]

فالسكّان - وإن حلّوا بالمكان، ونزلوا فيه - إلّا أنَّ لفظَهُ لا

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أهل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).

يُعطي دلالةَ التعمير والتأهيل الذي يعطيها لفظُ الأهل، فكانت هي الأولى بالسياق.

بلاغةُ التَّعبير باسم الإشارة المجموعِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الاستئذانُ شأنُهُ عند اللهِ عظيمٌ

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ إشارةٌ إلى المصدر المفهوم من ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ﴾، أي: ذلكم الاستئناسُ والتسليمُ خيرٌ لكم من تحيَّة الجاهليَّة[1].

وجاء الخطابُ بلفظ الجمع ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ لأنَّه موجَّهٌ إلى المؤمنين المنادَى عليهم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾، وقد آثر السّياق اسمَ الإشارة للبعيد لتعظيم المُشار إليه، وهو الاستئذانُ قبل دخول البيوتِ، فتلك آدابٌ عظيمة؛ إذا طُبِّقت عاش الناس في أمنٍ واستقرار.

وجاء الخطاب بالإشارة لأمرين: "أوَّلِهما: أنَّه ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ لِكَيْ تُصانَ الأعراضُ، وتُسترَ العورات، ولا يكونَ نطاقَ اتِّهام، ونفورٍ بالاستيحاش، وحيث كُشفتِ الأستار؛ كانت الفِتنُ، وكان ظنُّ السّوء، فتسودُ القطيعة والتفاحش ورمي الأبرياء، ثانيهما: رجاءَ التَّذكُّرِ وتعرُّفِ المصلحةِ وتحرّي الاحتشام، حتّى من الآباء والأمَّهات"[2].

دلالةُ تنكيرِ الخير وإيثار لفظِه:

الاستئذانُ يَحملُ كلَّ معاني الخير للجماعة المسلمة

جاء لفظُ الخير نكرةً في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾؛ دلالةً على تعظيم هذا الخير، فالحفاظُ على حرمةِ البيوت من أعظمِ أنواع الخير، وأوثِر دون لفظ الفضل لِما في الخير من معانٍ ودلالات ثريَّة لا توجد في الفضل، إذِ الخيرُ اسمٌ جامِعٌ يشمَل الفضلَ وغيرَه، وهو ما يرغب فيه الكلّ، كالعقل مثلًا، والعدل، والفضل، والشَّيء النافع[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 38.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5176، 5177.
(3) الراغب، المفردات: (خير).

دلالةُ شبه الجملة ﴿لَّكُمْ﴾:

الاستئذانُ جالبٌ للنَّفع مانعٌ للضرِّ

دلَّ شبهُ الجملة ﴿لَّكُمْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ على استحقاق الخيريَّةِ لمن يتأدَّب بآداب الاستئذان، ففي تسليط الخيريَّةِ عليهم وخطابِهم بها: إغراءٌ شديد، وتحفيزٌ أكيدٌ للاستئذان.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(لعلّ) وعَود الضَّمير فيه:

إرادةُ اللهِ الخيرَ لعبادِهِ من مقتضَياتِ رحمته سبحانه

تُستعملُ (لعلَّ) في الرجاء، والرجاءُ يكون للأمور قريبةِ الحصول، بعكس التَّمنّي، وعليه فإنَّ مجيءَ حرفِ التَّرجّي في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يحرِّك قلوبَ المؤمنين، ويرغِّبهم في أن يتذكَّروا تلك الآداب، ويعملوا بها، لتَعودَ عليهم بالنَّفع العميم، والاستقرار المُقيم، فمعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: لتكونَ حالُكم حالَ من يُرجى أن يتذكَّر برجوعه إلى نفسه عند سماع هذا النَّهي، فيعرفَ أنَّ ما يسوؤُهُ من غيرِهِ يسوءُ غيرَه منه، فيَفعلَ ما يحبُّ أن يُفعَل معه خوفًا من المقابلة؛ لأنَّ الجزاءَ من جنس العمل[1]، والخطاب لجماعة المؤمنين المُنادَى عليهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ دلالةً وصيغةً:

حثُّ الجماعة المؤمنة على التَّناصُحِ فيما بينهم

الفعلُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أصلُه (تتذكّرون)، أُدغمت إحدى التّائَين في الأخرى إرادةَ التَّخفيف، وهو من الذِّكر ضدَّ النسيان، وصيغ من الفعل الثلاثيِّ المضعَّفِ العينِ المَزيدِ فيه (تذكَّر)، وكان يمكن صياغتُه من الثلاثيِّ المجرَّد (ذَكَرَ)، بأن يُقال: (لعلَّكم تَذْكُرون)، أو مِنَ المَزيدِ فيه المخفَّف، فيقال: (لعلكم تَذَّكِرون)؛ لكنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادةٍ في المعنى، فالفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ المَصوغُ من (تذكَّر)

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/ 250.

المَزيدِ المثقَّلِ يدلُّ على مجاهدة هوى النَّفس، ومقاومةِ دواعي العجَلة الراسخة في الإنسان، الَّتي قد تدعوه إلى الهجوم على البيوت بلا استئذان؛ هروبًا من مَلَل الانتظار والترقُّب لإذنِ صاحبِ البيت، فجاء الفعلُ بالزيادة في المبنى، ليناسب تلك المعانيَ النفسيَّةَ التي قد تعرِض لبعض الناس.

ويُلمَح من دلالة الفعل ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الجماعة المؤمِنةَ لا بدَّ أن يشيعَ بينهم هذا الخُلُق، وأن يُذَكِّرَ بعضُهم بعضًا عند النِّسيان، الذي يكون الشَّيطانُ سببًا فيه، وهذا الفعل بصيغتِه ودلالته يُعالِج تلك المواقفَ التي يعرض فيها النِّسيان، كما جاء بيانُه في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: 201].

التَّوجيهُ البلاغيُّ لقراءة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

فـي التَّشديد مزيدُ تأكيد

قَرَأَ حَمزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وحَفْصٌ بِتَخْفيفِ الذّالِ حَيْثُ جاءَ، وقَرَأَ الباقونَ بِالتَّشْديدِ، ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؛ أيْ: (تتذكّرون ولو نوعا من التَّذَكُّر)، كما أشار إليه الإدغام (بما ترون فيها من الحكم)[1]، فمَن خفَّف حذف إِحْدَى التَّاءَيْنِ - وَهِي الثَّانِيَة - وهما زائدتان، إِلَّا أَن الأُولى تدل على معنى الِاسْتِقْبَال، وَالثَّانِيَة إِنَّمَا دخلت على معنى: (فعلت الشَّيْء على تمهل)، نَحْو قَوْلك: (تفهَّمت الشَّيْء) أَي: أخذت على مهل، وَمن شدد أدغم التَّاء فِي الذَّال لقرب مَكَان هَذِه من مَكَان هَذِه[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البـيـتُ محـلُّ اعـتـيـاد المَبيت ليلًا، فهو أنسبُ لمَـقـام إيـجـاب الاستئذان

البيت والمنزِل والمسكَن:

البَيْت مأوى الإنسان باللَّيل؛ لأنَّه يُقال: بات، أقام باللَّيل، كما

(1) ابن الجزري، النشر: 2/266، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 155.
(2) ابن زَنْجلة، حجة القراءات، ص: 279.

يُقال: ظلَّ بالنَّهار؛ ثمَّ قد يقال للمسكن: بيتٌ، من غير اعتبارِ اللَّيل فيه[1]، فلمّا كان البيتُ هو المكان الذي يعتاد الإنسانُ أن يَبيتَ فيه - أي: يَقضي اللَّيل فيه - واللَّيلُ مظنَّةُ التكشُّف والابتذال؛ كان هو الأولى بالذِّكر في سياق الاستئذان والاستئناس.

أما المَسْكَن فهو مكانُ سكن الإنسان، سواء كان بيتًا أم خلاءً، وسمّيَ البيت مسكنًا؛ لأنَّ الإنسان تسكُنُ فيه نفسُه، ويطمئنُّ فيه قلبُه؛ لأنَّه مشتقٌّ من السُّكون[2]، فمعنى السُّكون والارتياح مراعًى في المسكن، لذلك لا يناسب المسكنُ سياقَ الاستئذان، فالاستئذان واجبٌ لدخول جميع بيوتِ الآخرين، بغضِّ النَّظر عن توفُّر عامل السكون فيها.

والمَنْزِل اسمُ مكانٍ للنُّزول، يقال: نزل في مكان كذا: حطَّ رَحلَهُ فيه، وأنزله غيرُهُ، قال الله تعالى حكايةً عن دعاء نوح ﷺ: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون:29][3]، والنُّزول في المنزل قد يكون مؤقَّتًا، لغرَض الاستراحة، وسُرْعانَ ما يَبرَح، فليس فيه ما في البيت من بَياتٍ ونوم وتخفُّفٍ من الثياب، شأنَ الإنسان المتبذِّلِ في بيته، وعليه فلا يصلُح هذا اللَّفظُ أن يحلَّ محلَّ لفظ (البيت) الواردِ في سياق الآية.

الاستئناس والاستعلام والاستكشاف والاستئذان والرُّخصة:

الاستئناسُ يفترق عن (الاستعلام) و(الاستكشاف) و(الاستئذان) و(الرُّخصة) بأنَّه يجمع كلَّ هاتيك المعاني: فالاستئناس استعلامٌ واستكشافٌ، فهو "اسْتِفْعالٌ مِنْ آنَسَ الشَّيْءَ؛ إذا أَبْصَرَهُ ظاهِرًا مَكْشوفًا"[4]، وهو رديفُ الاستئذان، لكنَّ فيه معنى الأُنس، وهو ليس موجودًا في المترادفات المذكورةِ، يُقال: استأنستُ بفلانٍ، وتَأَنَّسْتُ به

من كرَمِ الأخلاقِ أن يأنَسَ المضيفُ بضيفه، ويفرحَ به

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) الراغب، المفردات: (سكن).
(3) الراغب، المفردات: (نزل).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 356.

بمعنًى، واسْتَأْنَسَ الوحشيُّ؛ إذا أحسَّ إنْسيًّا، والأنيسُ: المُؤانِسُ، وكلُّ ما يُؤْنَسُ به، والإيناس: خلافُ الإيحاشِ، وكذلك التأْنيسُ[1]، والإيناس يحمِل معنى الفرحة، يُقال: أَنِسْتُ بِفُلانٍ، أَي: فرِحْتُ به[2]، والاستعلام: طلبُ العلم بالشيء، والاستكشاف: طلب الكشف، والاستئذان: طلبُ الإذنِ "والرُّخْصَةِ في الأمر، خِلافُ التَّشديد فيه"[3].

فجميعُ هذه الألفاظِ لا يحمل واحدٌ منها ما يحمِله الاستئناس من انعقاد النَّفس على الأُنس والارتياح، والسكون والاسترواح، فكان اختيارُهُ في هذه السّياق أولى.

السلام والتحيَّة:

في السلام براءةٌ وسلامةٌ وعافيةٌ ونجـاةٌ ودعـاءٌ تناسب حُسْنَ أخلاق الضَّيف

السلامةُ: هي التَّعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة، قال الله تعالى: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 89] أي: متعرٍّ من الدَّغَل، فهذا في الباطن، وقال تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة 71]، فهذا في الظاهر[4]، والسَّلامُ والسَّلامَةُ: البَراءَةُ، والسَّلامة: العافيَةُ، والسَّلامة: النَّجاة، والسَّلامة: الدُّعاء[5].

أمّا التحيَّةُ؛ فأصلها من الحياة، ثم جُعِل ذلك دعاءً، فيقال: حيّاك الله، أي: جعل لك حياةً[6]، والتَّحيَّة: السَّلامُ، والبقاءُ، والمُلْك[7].

ومِن ثَمَّ فإنَّ مدلولاتِ السَّلام السابقةَ - وهي البراءة والسلامة والعافية والنجاة والدعاء - تصلح كلُّها لأنْ تكونَ دعاءً لمَن يُراد دخولُ بيتِهِ، بعكس التَّحيَّة، ففيها معانٍ لا ترادُ لصاحب البيتِ، كالملك والبقاءِ، ومِن ثَمَّ كان السَّلامُ هو الأنسب في سياق الاستئذانِ.

(1) الجوهري، الصحاح: (أنس).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أنس).
(3) الجوهري، الصحاح: (رخص).
(4) الراغب، المفردات: (سلم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سلم).
(6) الراغب، المفردات: (حيي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (حيي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»